أسس الوحدة الإسلامية في المنهج الإسلامي

أ/ إبراهيم نويري

جامعة تبسة

تمهيد:

ليست الوحدة الإسلامية مفهوماً خيالياً، أو مجرد فكرة هلامية أو أطروحة نظرية صرفة، بل هي منظومة قيمية شديدة الارتباط والتماهي مع تطلعات وتشوّفات وآمال الأمة المسلمة، تستهدف رجَّ وتغييرَ واقع العالم الإسلامي، والارتقاء به ـ نتيجة ذلك التغيير ـ إلى أن يكون واقعاً منسجماً وتعاليم الإسلام ومقاصد شريعته الغراء، فالمسلمون على وجه اليقين أمة واحدة، ربهم واحد، وكتابهم واحد، ونبيّهم واحد، وقبلتهم واحدة، وشريعتهم واحدة، وهمومهم واحدة، ومفاهيمهم الأساسية المتعلقة بالدين والحياة واحدة، وتطلعاتهم في عمومها واحدة أو متقاربة، ودليل ذلك كله أن المسلمين لهم فلسفة واحدة وتصوّرات متناغمة فيما يتعلق بالكليات عن الإنسان والكون والحياة والمصير والجزاء. وما إلى ذلك من قضايا أساسية أو جوهرية نابعة من المعتقد أو من المفاهيم القيمية التي تميّز منظومة الإسلام الحضارية .

وهذا البحث يروم بيان أبرز وأهم الأسس أو المرتكزات التي تقوم عليها وحدة الأمة الإسلامية، بوصفها إطارا جامعا، على المستوى العقدي والثقافي والسياسي والاقتصادي والإعلامي.. إلخ . كي يدرك القراء والباحثون والمتابعون طبيعة الكيان الجامع للأمة الإسلامية، وطبيعة الثمار التي ينبغي أن تُجتنى من حقيقته. وأن الواقع الذي تعيشه هذه الأمة لو خضع في كلّ شؤونه وتفصيلاته لمظلة هذا الكيان الجامع لكان على غير النحو أو الصورة التي هو عليها الآن.. ذلك أن الكيان الجامع للأمة من أولى خصائصه أنه يمنح الصلابة والمنعة والحماية، ويعضد أو يُفعّل جميع أسباب القوة والازدهار في شرايين الأمة

ومؤسساتها الحيوية. فالقوة الداخلية والمنعة الذاتية هي سر وجوهر الظهور والحضور الفاعل والمؤثر على الصعيد العالمي والحضاري.

دعائم الوحدة الإسلامية :

تتأسس الوحدة الإسلامية على جملة من القواعد والمرتكزات والدعامات، التي هي بمثابة عماد الخيمة في عملية البناء الوحدوي للأمة الإسلامية، أو بمثابة الأركان الركينة التي يعتكز عليها الكيان الحي المتحرك لهذه الأمة .. بحيث لا يُتصور ـ دون هذه الأركان ـ إمكانٌ لتحقق أي صورة أو أي شكل من أشكال وحدة الأمة الإسلامية، وهذه الأركان تتمثل في ما يلي :

1 ـ التوحيد الخالص:

التوحيد جوهر الإسلام، ومقصد المقاصد في نظامه ومنظومته العقدية، بل إن الوحدة نفسها مشتقة ومنبثقة في الآن نفسه عن عقيدة التوحيد، التي قوامها: عبادة اللّه وعدم الشرك به، وهو الحق الأول للّه على العباد .

قال اللّه تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾[1] .. يقول الإمام ابن كثير في تفسيره هذه الآية الكريمة من كتاب اللّه: "في هذه الآية يأمر اللّه تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه الخالق الرازق المنعم، المتفضّل على خلقه في جميع الآنّات والأحوال، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً"[2].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[3] .. يقول الشيخ محمد علي الصابوني في تفسير هذه الآية الكريمة: " أي وما خلقتُ الثقلين الإنس والجن إلاّ لعبادتي وتوحيدي، لا لطلب الدنيا والانهماك بها، قال ابن عباس: إلاّ ليعبدون: إلاّ ليقروا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً.. " [4]

كما ورد في الصحيحين: عن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنتُ رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: "يا معاذ أتدري ما حقّ اللّه على العباد ؟ " فقلت : اللّه ورسوله أعلم . قال: "حق اللّه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً " [5]

لذلك فإن عقيدة التوحيد هي العقيدة التي تصدق بها العقول وتنسجم مع مقرراتها النفوس وتطمئن لها القلوب والضمائر، فهي عقيدة تزكي الروح

والجسد وتعمر الدنيا والآخرة، وهي ما كان عليه سلف هذه الأمة، كما قال الله تعالى على لسان رسوله الكريم محمدﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[6]

فالصراط المستقيم ـ وفق هذه النصوص ـ يقتضي نقض الشرك من جذوره وأسسه والتشبث بروح الدين القيم، الذي هو التوحيد الخالص من الشوائب والشبهات، فليس من المصادفة ورود الربط بين العقيدة الصحيحة، وواجب الاعتصام بحبل الله، أي دينه وكتابه ومنهجه، في الكثير من النصوص والآثار والشواهد، لأن هذه القاعدة إنما تمثل ضماناً حقيقياً لبقاء الجماعة المسلمة وضمان منعتها وتماسك بنيانها، كما في الحديث الذي أخرجه الإمام مالك والإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا مَنْ ولاّه الله أمركم، ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال" [7] .

قد ترد ملاحظة في هذا السياق عن سبب جعل التوحيد الخالص، أو العقيدة الصافية، الدعامة الأولى للوحدة الإسلامية، وتعليل ذلك واضح، قريب إلى الإدراك والاستيعاب والفهم، فإن الإسلام كيان أو بناء شامل لكلّ مناحي الحياة ومجالاتها، وهذا الكيان بُني على خمس ـ كما ورد في الحديث النبوي الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما[8] ـ أولها وأعظمها شأناً: الشهادتان.. أي الإقرار بالعقيدة الصحيحة في الألوهية والنبوة والرسالة، وهذا من البداهة بمكان في منظومة الإسلام وفكريته، فالعقيدة الصحيحة هي "أعظم ما يُطلب من الإنسان، لأن العمل إنما يتبع الاعتقاد، وعلى قدر ما تصحّ عقيدة المسلم وتقوى، تستقيم أعماله وتزكو أخلاقه". [9]

لقد كان مبدأ التوحيد في مطلع الرسالة الخاتمة، ثورة حطمت الشرك الديني والاعتقادي الجاهلي، ذلك الشرك الذي ألزم الناس ـ حيفاً وبغير وجه حق أو اعتبار ـ بعبادة غير الله تعالى، كما نجح التوحيد الخالص في تحطيم وتقويض كل مظاهر الشرك الاجتماعي الذي جعل من بني الإنسان سادة يأمرون فلا يتوقعون إلاّ الطاعة العمياء بغضّ النظر عن طبيعة تلك الأوامر، وعبيداً ودهماء

كانوا يظنون أنهم ما خُلقوا إلاّ لخدمة هؤلاء السادة والزعماء، فشاء اللّه أن يقوم مبدأ التوحيد بتصحيح الوضع الاعتقادي والفكري والديني والاجتماعي، بتقريره أن العبادة لا تكون إلاّ للّه الخالق وحده دون سواه، فاللّه خالق الجميع، ونسبة الجميع إليه واحدة، تأبى التجزئة، فمن حقه أن يُعبد وحده، ومن حقه أن يكون السيد المطلق لجميع عبيده الذين خلقهم وكرمهم ورزقهم .

وعند التأمل نجد أن جعْل التوحيد الخالص أساساً لتجمّع الجماعة المؤمنة ـ في ظل منظومة الإسلام الحنيف ـ إنما هو تكريم بعيد الأثر في نفسية الأمة المسلمة، وتماسك كيانها وقوّة بنائها، فالتوحيد هو الفطرة الصحيحة التي ذرأ اللّه الناس عليها لذلك نلاحظ أننا عندما نروم "استقراء التاريخ وأحداثه، لا نجد دعوى يُؤبهُ لها من أحد يزعم أنه إله مع اللّه. والذين فُهم ذلك عنهم، إما مُتهمون أبرياء كبعض الرسل والملائكة، وإما مخلوقات لا تحس ولا تعقل، كالأحجار والأبقار، وإما حكام سفلة، كفراعنة مصر وأشباههم"[10] ..

وهل يُعقل أن يكون الشرك ـ الذي هو نقيض التوحيد ـ أساساً لتجمّع أو تضامن أو مناصرة أو أُخوة ؟ إن العقول تدرك هذه الحقيقة، وتسلّم بها دون جدال، ولعلّ أوضح دليل على ذلك، الاحتيال والافتيات الذي مارسه مشركو العرب في العصر الجاهلي، عندما توهموا بأن الأصنام التي عبدوها تصلح واسطة بينهم وبين اللّه الخالق المدبر العزيز الحكيم . وقد نقل القرآن الكريم ذلك عنهم إخباراً لا إقراراً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[11] .

فقمين إذن بهذا الأساس أو المرتكز أن يتبوأ المنزلة الأولى والمقام الأرفع في معمار منظومة التصور الإسلامي، وأن يتصدر مرتكزات ودعائم الوحدة في المنهج الإسلامي، فالعقيدة الصحيحة المبرأة من شوائب الشرك، هي مرتكز الوحدة، وقاعدة التلاقي والتناصر والتضامن بين المؤمنين، والتوحيد الخالص المصفى إنما هو "روح الإسلام وجوهر عقيدته، ومحور عباداته المنوّعة، فمبدأ التوحيد يسري في تعاليمه كافة سريان الماء في النبات أو الأعصاب في البدن .. حتى ليعتبر التوحيد الإسلامي أصرح وأكمل ما أسسه دينٌ في قلوب بنيه، ودمغ البشر جميعاً بطابع العبودية للّه وحده." [12]

إن الرسالة الإسلامية منذ فجرها الأول صدعت بهذ الحق، وبيّنت للناس جميعا بأن التوحيد والتمكين له في النفوس والضمائر يمثل هدفها الأول . ورسول اللّه ﷺ وقف قلبه وجهده، كما وهب حياته وحياة أصحابه وأنصاره لتمكين هذه الدعامة، وفي سبيل إظهار حقيقتها لم يقبل أي مساومة أو مهادنه أو مسامحة، لا من العرب ولا من أهل الكتاب . كما أنه لم يقل بأنه مبتدع في الدعوة إلى التوحيد، بل بيّن بأنه مكمّل للبناء ومعيدٌ للحنيفية السمحة أو عقيدة الفطرة السليمة التي صدع بحقيقتها وثباتها الرهط الكريم من أنبياء اللّه ورسله عبر التاريخ .

لقد كانت تداعيات التوحيد وآثاره بركة وسلاما وخيرا ونورا على جميع الأصعدة والمستويات، فعلى صعيد المعتقد زَكَتْ النفوس والأرواح من الشرك فتحررت من أغلال وآصار الوثنية، وعلى صعيد العقل والنظر تطورت أساليب وطرائق التفكير وانعتقت من أوهام الخرافة وعقابيل الجهل، وعلى مستوى السلوك حدث تغيّر هائل أدخل المجتمع العربي إلى طور من التحضر لا قبل له به قبل مجيء الإسلام، فالأعراب الذين طالما وأدوا بناتهم بغير حق، وافتخروا بسفك الدماء والنهب والغارة على أملاك الآخرين وسرقتها، صاروا من عباد اللّه الخاشعين الراكعين الصالحين، لا رجاء لهم إلا ابتغاء فضل اللّه ورضوانه .

والأسرة التي كان يرث فيها الرجل زوجات أبيه دون حرج، صارت الأسرة المطهرة القائمة على الاحترام والتقدير والتعاون. والقبيلة التي كانت لا تعرف حقا إلا لعصبيتها ولا ترعى ذمة إلا لمن هو منها، صار فيها من يردّ إلى نصارى حمص أموالهم لأنه عجز عن رعاية ذمتهم. والسادة الذين طالما استعبدوا الناس، صاروا يخشون اللّه وحده ولا يخشون في الحق لومة لائم [13]، إنه تحوّل جذري أو نقلة بعيدة المدى، جعلت العرب في مدة زمنية قصيرة يتحولون من البداوة إلى الحضارة، ومن الفوضى إلى النظام ومن القبيلة إلى الدولة.

2ـ المرجعية الواحدة :

للأمة الإسلامية ثوابت تنطلق منها، وتؤوب إليها في الاستمداد والتلقي، وكذلك عند محاولة الفهم والاجتهاد والتأمل الذي يروم إدراك المقاصد العامة والخاصة على السواء، ولا ريب في أن هذه الثوابت والمنطلقات، هي التي منحت

هـذه الأمـة قسـمات متميـزة في الفكـر والتصـور والهويّـة الاجتماعيـة والثقافيـة والحضـارية .. كمـا جعلتهـا أمـة ذات مرجعيـة منسـجمة متفـردة، بيـد أن هـذه الثوابت ليست بمنزلـة واحـدة، سـواء مـن جهـة القداسـة والتوقير أو جهـة التحتيم والإلزام، وتتمثل هذه الثوابت والمنطلقات فيما يأتي:

أ ـ القرآن الكريم : من فضل الله تعالى على هذه الأمة المسلمة، أن مَنّ عليها بحفظ قاعدة وأساس كيانها وهوّيتها المتميزة، كتاب الله المعجز القرآن الكريم، كما هو ثابت بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[14]، فهو آية الله الباهرة ومعجزته الخالدة، بتراكيبه وأساليبه، وبفصاحته وبلاغته، وبحكمه ومراميه، وبمبادئه وإرشاداته وتعاليمه، وبما اشتمل عليه من المُثل العليا والنّظم القويمة والآيات البيّنات التي حيّرت الألباب وبهرت الأفئدة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[15]

إن قلـوب المسـلمين وضـمائرهم منعقـدة بصـفة تامـة كاملـة علـى أن القـرآن الكريم إنما هو المصدر الأول الأصيل لتعاليم الإسلام وتوجيهاته كلها، فهو من المصادر الأخرى ـ في المنهج الإسلامي ـ بمنزلة الجذع من فـروع الشـجرة وثمارهـا.. فكتاب الله تعالى إنما هو "قطب الإسلام ومنبع شرائعه، والدسـتور الـذي يقتعـد الصدارة فيما يضمّ من توجيه وأدب ووصايا وأحكام، ومنه تؤخذ الصـور العامـة لما يرضاه الله لعباده في شؤون حياتهم، ومناحي تفكيرهـم، ومعـالم سـلوكهم .. والمؤمن بالقرآن يستحيل أن يرجّح على دلالته دلالة، ذلك أن القرآن يعلو ولا يُعلـى عليه، وأنه يحكم على سائر الأدلة الأخرى، ولا يحكم شيءٌ منها عليه." [16]

ومـن غـير شـك أن مبـدأ الوحـدة الإسـلامية يسـتمدّ مسـوّغات طرحـه ووجـوده وثباته، من القرآن الكريم، الذي هو المرجع الأول لجماعـة المسلمين، والـنص الثابت الذي تُستقى منه الهداية في الإيمان والمعتقـد والسـلوك، فمـن البداهـة ـ في هـذا السـياق ـ القـول بـأن " كـلّ تعـابير الهدايـة القرآنيـة تزخـر بمعـاني الأخـوة والتوحّد والألفة والتعاون والاعتصام بحبل الله، أي تزخر بالمعـاني التي تجعل مـن جماعة المسلمين أمة في معتقدهـا وحضـارتها ومقوّمات وجودهـا " [17]

لقد تعددت وتنوعت الآيات القرآنية التي تدعو إلى الوحدة، وتحثّ على التناصر والتكتل والتكامل والتضامن بين المسلمين .. ومن ذلك :

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[18]

وقوله : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾[19]

وقوله: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾[20]

وقوله : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[21]

وإذا كان القرآن الكريم هو المنبع الأول للتلقي والاستمداد لدى المسلمين، والمعيار الثابت في المنهج الإسلامي الذي تُردّ إلى مقاييسه وقواعده كلّ الأفعال والأعمال والمسالك والمعارف والأفكار والمواريث، وإذا كانت الآيات والتوجيهات الصريحة الواردة فيه، بإزاء مسألة الوحدة والاتحاد والاعتصام والمؤاخاة، قد وردت في آيات قطعية الدلالة، تنطوي في صيغتها اللغوية على دلالات الوجوب ـ كما يعبّر علماء أصول الفقه ـ أدركنا على وجه اليقين مركزية مكانة الوحدة بين المسلمين، في المرجعية الإسلامية التي يمثل القرآن الكريم فيها الركن الأول .

ولا ريب أن هذا الإدراك والاعتبار ليس مقتصراً على المسلمين والعرب وحدهم دون غيرهم من بني البشر.. بل إن أعداء الإسلام كذلك المناوئين والشانئين له في الشرق والغرب قد أدركوا أيضا أبعاد " أهميّة القرآن الكريم في توحيد الأمة، وفي إمدادها بالقوة الإيمانية الكبرى، وأدركوا ما يمثله القرآن من خطر عليهم، فقال (غلادستون) وزير بريطانيا الأول وكبير أعمدة الاستعمار في الشرق الأوسط : ما دام القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، بل ولا أن تكون هي نفسها في مأمن "[22]

ب ـ السنّة المطهّرة : من البداهة أن تحتلّ السنة النبوية المطهرة المنزلة الثانية بعد القرآن الكريم، في منظومة المرجعية الإسلامية العليا .. فإذا كان القرآن هو الجانب العلمي من رسالة الإسلام، فإن السنة النبوية تمثل النموذج الحي والأمثل في الوقت ذاته، بإزاء التطبيق العملي لتعاليم القرآن . فلا يصحّ ـ بعد ذلك ـ أن يكون هناك تفاوت بين الكتاب والسنة، في أيّ مجال من المجالات.

إن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظ القرآن، كما تعهد ببيانه وإيضاح ما ورد فيه عاماً أو مطلقاً، بواسطة السنة النبوية الشريفة سواء أكانت عملية أو تقريرية أو قولية، وفي ذلك يقول الله تعالى لنبيّه الكريم : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[23]، كما بيّن الله سبحانه وتعالى بأن السنة إنما هي مستوى من مستويات الوحي الإلهي الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[24]، وفي قوله أيضا : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[25]

وقد أكدت السنة النبوية الشريفة على وجوب التمسك بالجماعة المؤمنة الخيرة، وكذا على اعتبار الوحدة والتآلف رحمة، والفرقة والتشرذم عذاباً، فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: خطبنا عمر بالجابية فقال : يا أيها الناس إني قمتُ فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، حيث قال: " .. عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة .. "[26] .. وروى الإمام مالك في موطئه حديثاً مرسلاً عن سعيد بن المسيب، عن رسول الله ﷺ قال: " الشيطان يهمّ بالواحد والاثنين، وإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم" [27]

كما وجه رسول الله ﷺ أمته إلى أساس الوحدة القوي، المتمثل في الاعتصام بحبل الله المتين ومنهجه الحق، حتى أنه في خطبة حجة الوداع، اعتبر نقض الائتلاف والاتحاد والمودة بين المؤمنين كفراً، أي هدماً للبناء الذي أسسه وأقام دعائمه على أساس مكين طيلة عهد البعثة والرسالة، حيث قال في تلك الخطبة الوداعية التي كانت بلاغاً عاماً للمؤمنين في البلد الحرام . ثم وصيةً دائمة في ذمة الأمة المسلمة عبر الزمان والمكان أبد الدهر: " لا ترجعوا بعدي كفاراً يضربُ بعضكم رقاب بعض" [28]

وعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: "مثلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [(29)]، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضُه بعضاً، ثم شبّك بين أصابعه " [(30)]

إن موقع الوحدة في السنة النبوية هو موقعها نفسه في القرآن الكريم، مضافاً إليه الترجمة العملية، وإقامة النموذج الحي المتحرك لهذه الوحدة على أرض الواقع، فتاريخ الدعوة الإسلامية يشير إلى أن أولى لبنات الوحدة الإسلامية وُضعت في مكة المكرمة، مع مطلع الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، ونبذ عبادة الأصنام، فقد وحّدت العقيدة الإسلامية الوحدوية، بين معتنقيها جميعاً، من الرجال والنساء والأشراف والضعفاء والأحرار والعبيد والعرب والعجم، حيث يلاحظ الدارس والباحث أن الكوكبة الأولى من المسلمين ممن نصروا الرسالة والإيمان، بينهم تفاوتٌ لا تخطئه عين، من جهة النسب أو المكانة الاجتماعية أو الحالة الاقتصادية، من غنى ويسار أو فقر ومسغبة .. الخ

فكان من هذه الكوكبة المضيئة خديجة بنت خويلد ـ زوج رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق وبلال الحبشي وعلي بن أبي طالب وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وأمه سمية ورافع بن خديج والمقداد بن الأسود[(31)] وعبد الرحمن بن عوف وصهيب الرومي ومصعب بن عمير .. لقد كان هؤلاء يجدون حلاوة الإيمان الحق فيجهرون به، ويعرّضون أنفسهم لأذى المشركين، كما أن المؤمنين الأوائل تعرضوا لمحنة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية، وللحرب النفسية التي وثقتها قريش في صحيفتها الظالمة إرهاباً لبني هاشم وبني عبد المطلب، جراء حمايتهم لرسول الله ﷺ غير أن هذه المحنة لم تزدهم إلاّ يقيناً وثباتاً وانصهاراً مثالياً في وحدة إيمانية لا تلين قناتها ولا تضعف همتها [(32)]، فقد أصبح شعور هذه الكوكبة تياراً وجدانياً واحداً، كأنه يصدر عن كيان واحد، ويعبر عن مختلجات نفس واحدة وضمير واحد .

لذلك يمكن لنا أن نستنتج بأن الوحدة الإسلامية ـ كما يظهر من تاريخ فجر الدعوة ومن السنة النبوية العملية ـ إنما تأسست قبل الجهر بالدعوة، أي ولدت مع الدين الجديد نفسه [(33)] ثم أخذت تترسخ في النفوس والضمائر والأفئدة، مع

تشابك الأحداث والأهوال التي واجهت الجماعة المؤمنة الأولى . وإن كان حادث الهجرة الشريفة من مكة إلى يثرب، يمثل أهمّ معلم للوحدة الإسلامية، أو بالأحرى الإنجاز الأول لها على أرض الواقع، بالنظر إلى طبيعة النقلة التي حدثت بالفعل على مستوى الناحية الشعورية للجماعة المؤمنة الأولى وعلاقاتها السياسية والإنسانية المواكبة لوضع اللبنات الأولى للدولة الإسلامية النبوية .

لقد جاءت الهجرة لتجمع المسلمين في المدينة، وتوحد صفوفهم، ولتحقق لهم العزة والكرامة التي ظلت مصادرة ومهدرة خلال الفترة المكية، وكذا لتضع حداً فاصلاً لإرهاب الشرك وجبروت الضلال وعدوان الكفر، ولتمكنهم من عبادة الله الواحد الأحد بحرية ويقين خالصين، والتصرف بإرادة حرة وفق مراد الله ومقاصد شريعته ومنهجه فيما يتعلق بالحدود والأحكام والعلاقات، لا وفق إملاءات نزوات وأهواء البشر المنحرفة .

إن هذه المشاعر المعتقة بالعزة الإيمانية، جعلت رسول الله ﷺ يكتب كتاب (الموادعة) بين المهاجرين والأنصار من جهة، وساكني المدينة من كلّ الطوائف من جهة أخرى، ومما لا ريب فيه أن هذا الكتاب يُعدّ بحق أول وثيقة دستورية مدونة لإعلان الوحدة الإسلامية، فقد جاء في المادة الثانية من هذا الدستور الذي عُرف بدستور المدينة: " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومَن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس" (34)

الحق أن المسلمين كانوا على عهد رسول الله ﷺ مثل الجسد الواحد تماماً إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى والتحمّل، فقد كان هذا شأنهم في مكة المكرمة قبل الهجرة الشريفة، وقبل قيام دولة الإسلام، عندما كانوا مستضعفين مطاردين مضطهدين مُستخْفين بين الناس، كما كان شأنهم كذلك بعد الهجرة إلى المدينة، وقيام الدولة الإسلامية النبوية والمجتمع الإسلامي للجماعة المؤمنة الأولى، بل لقد توطدت اللحمة أكثر من ذي قبل، بعد أن أعزّهم الله وكتب لهم النصر على أعدائهم، ومكن لهم في الأرض، بتأسيس المجتمع النموذج الخيّر النبيل، هذا المجتمع الذي أصبح في وقت وجيز مصدر إرشاد وهداية ونشر الدين الحق في كلّ اتجاهات ربوع المعمورة .

ولا مـراء في أن تحقـق هـذا النمـوذج علـى أرض الواقـع يُعـزى إلى جملـة مـن الأسباب، أهمها:

ـ وجود قيادة واحدة ممثلة بالمعصوم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يجوز الخروج عليه، ومن بايع غيره كان كافراً أو مرتداً، كما هو واضح من خلال القرآن والسنة وحركة سير الدعوة، في تلك المرحلة.

ـ عودة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم جميعاً، عند مواجهتهم لإشكال ما في مسألة من المسائل أو نازلة من النوازل المستجدة إلى رسول الله ﷺ وليس بعد ما يقوله لهم قول، ولذلك قرن القرآن الكريم بين أمر الله تعالى وأمر نبيّه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (35)

ـ وحدة الهدف والغاية، فالصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، وقد فازوا بشرف الصحبة، ومعاصرة زمان الوحي، إنما كانوا يجاهدون ويبذلون وسعهم وطاقتهم بسخاء تام، في سبيل أن يكون الدين كله لله.

ـ وحدة الجماعة، فقد كان النبي ﷺ يدعو إلى وحدة الأمة وتماسك الصف ووضوح الهدف، ويحذّر الصحابة من مصائر الأمم السابقة التي كثر فيها المراء والاختلاف والشقاق والتنابز، ولذلك لم تظهر الفِرق بين الجماعة المؤمنة الأولى، فلا مرجئة ولا معتزلة ولا جهمية ولاقدرية، أو غير ذلك من الفرق والتيارات والمذاهب التي ظهرت في مرحلة لاحقة (36)

جـ ـ الإجماع: يرى جمهور الفقهاء والأصوليين، أن الإجماع يلي الكتاب والسنة في الحجيّة، فهو لهذه المنزلة مقدم على القياس وغيره من الأدوات المنهجية الاستنباطية التي يُستدلّ بها على الأحكام (37)، ومن هنا نستطيع أن ندرك موقعه ضمن مكوّنات المرجعية الإسلامية العليا، كما أطلقنا عليها، والإجماع في اللغة العربية يعني العزم والتصميم، وأصله من الجماعة، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾(38)، كما يُطلق في اللغة أيضا على الاتفاق، يقال: أجمع القوم على كذا أي اتفقوا عليه. أما الإجماع في الاصطلاح الشرعي، فهو يعني في أبسط تعريفاته: اتفاق

مجتهدي أمة محمد ﷺ في عصر من العصور، على حكم شرعي اجتهادي في مسألة من المسائل .

لقد ورد في القرآن والسنة ما يشير إلى أهمية الإجماع ومنزلته وجدواه في مواجهة المعضلات والمستجدات والنوازل التي تنبع في محيط وتفاعلات العلاقات العامة بين المسلمين، أو تطرأ على حياة الجماعة المؤمنة، حتى أن الله تعالى وصف إجماع الأمة بأنه (سبيل المؤمنين) وذلك في قوله جل شأنه: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[39]، وجاء في السنة المطهرة قوله ﷺ: " إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة "[40]

فلا ريب إذن ـ وفق هذه المقررات القطعية ـ أن اعتماد الإجماع، وما اتفق عليه أصحاب رسول الله ﷺ وما ائتلفت عليه قلوب المؤمنين جيلا بعد جيل أصلاً مكيناً من أصول الإسلام، ينبغي تعلمه، والاستئناس به في فهم الأحكام الشرعية، لاسيما إذا أدركنا أن ذلك يوفر على المسلمين جهوداً مقدورة، قد تُصرف في غير محلها، ويسهم في إضعاف وتضييق مجالات ومساحات الاختلاف بينهم، ويضع الأمور في نصابها الصحيح في فهم وتنزيل الكثير من المسائل والقضايا والنوازل[41]

وإضافة إلى ذلك فإن الإجماع ـ كما يقرر الشيخ الغزالي ـ في تعليقه أو استدراكه على فهم الشيخ محمد عبده له (أي لمسألة الإجماع)، يشير ويرشد المتأمل إلى منزلة الأمة الإسلامية عند الله تعالى، فهو سبحانه قد "جعل المسلمين حجّة على الناس في قبول أقوالهم، كما جعل الرسول حجّة على المسلمين في قبول قوله. والمقصود بالمسلمين أهل العلم والتقى والخبراء في فقه الكتاب والسنة، فهؤلاء هم الذين نأخذ بتوجيههم، ونتقيد بإجماعهم، ونرى الخروج عن هديهم مزلقة إلى الانفلات عن الإسلام نفسه. وقد جاء في السنة تزكية لإجماع الأمة باعتباره الحقّ الملزِم.. وهذه الآثار تقضي على النزعات الانفرادية، وتقضي على الشذوذ في الفكر والسلوك، وتجعل الأمة صفاً موحداً"[42]

وهذا كلام وجيه، فإن ظهور الكثير من الفرق الباطنية والتيارات الزائغة والمارقة في حركة التاريخ الإسلامي، يعود في أصله إلى سبب نسف (الإجماع)

باعتباره أصلا مكيناً في الإسلام. ولو روعي ما أجمعت عليه الأمة في عهدها الأول، من قضايا أساسية في الدين، مِنْ مثل أن القرآن هو هذا الذي بين أيدينا، مما هو بين دفتي المصحف الشريف، وأنه لا معصوم بعد رسول الله ﷺ وأن سنة رسول الله واجبة الاتباع، وأن أركان الإسلام خمس، هي الشهادتان والصلوات الخمس في مواقيتها، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله عند الاستطاعة، وأن الصحابة الكرام هم خير قرون الإسلام وأفضل أجياله .. الخ، لما كان هناك مجال للتنطع والغلو، ولتَعَذرَ تجاوز ضوابط التأويل الذي أفضى إلى ظهور بعض الفرق والتيارات والتوجهات التي أوهنت روابط الوحدة والائتلاف والقوة بين المسلمين (43)

كما نرى أن الإجماع يتسق في بعض جوانبه، ومفهوم الشورى وسلطة الاحتجاج، فقد كان رسول الله ﷺ كلما طرأ طارئ أو جدّ أمر ينادي في الناس: الصلاة جامعة، وذلك بغية تأسيس رأي عام جماعي، يشعر كلّ فرد في الجماعة المسلمة بأنه أسهم في صياغته وبلورته وتجلية أبعاده .

غير أن من يراجع مفاهيم الإجماع في الفكر الإسلامي القديم، ويستعرض بعض نماذجه، يدرك لا محالة وجود فرق شاسع بين المنزلة الأثيرة لفكرة الإجماع في التصور الإسلامي وفي فكر الأمة، وبين الإجماع كما تناولته كتب أصول الفقه بصورته التجريدية، الأمر الذي يضحى بإزائه الإجماع بحاجة ماسة إلى مراجعة علمية منهجية، حتى يتسنى تحويله فعلا إلى صيغة أو معادلة قابلة للتطبيق، مما ييسر أمر استفادة الواقع الإسلامي المعاصر من أثره العملي التطبيقي .

ومع ذلك يصحّ الإقرار بأن الإجماع ـ حتى وفق صوره الموروثة ـ قد ساعد في التمييز بين الأحكام الثابتة المتصفة بالديمومة، تلك التي تُسمى في عرف الفقهاء: المعلوم من الدين بالضرورة، وبين الأحكام الاجتهادية المتغيرة المتعلقة بالزمان والمكان والإنسان، لذلك يجوز أن نستنتج ـ وفق هذا الفهم ـ بأن الإجماع ليس مستوى واحداً، كما أنه ـ كقاعدة للاجتهاد والنظر والمواءمة والترجيح ـ لا ينفي إمكانَ وجود تنوّع في الرأي، ودليل ذلك أننا نرى شيوع بعض المصطلحات في الفقه الإسلامي، من قبيل " إجماع أهل المدينة" و"إجماع المذهب " و" إجماع الأئمة الأربعة " و" إجماع الأصوليين" و"إجماع أهل الحل والعقد" .. الخ.

3 ـ **الأخوة الإيمانية:**

الأخوة في الله ركن جليل القيمة، بعيد الأثر في المنظومة القيمية والأخلاقية للمجتمع المسلم . ذلك أن الأخوة هي ثمرة الإيمان القلبية، والجهاد ثمرته العملية، أي أن أول أثر للإيمان إنما يتحقق ويتجسد في الأخوة قبل غيرها من المطالب والتكاليف والمآلات المترتبة عنه، وتُطلق كلمة أخ في العقيدة على من يشارك شخصاً آخر في معتقده، وقد يُعبر عنه بلفظ" أخ في الدين" أو "أخ في الله " أو " أخ في المنهج والدرب"، وهي الأخوة الإيمانية التي لا تضاهيها رابطة أخرى مهما بلغ مستوى وشائج القربى والولاء من المتانة والقوة .

يتأكد لدينا مدى رفعة مقام الأخوة ومدى عظيم منزلتها في الإسلام، إذا علمنا أنها لا تنفصم عراها، ولا تُبطل آثارُها، ولا يُلغى ما يترتب عنها ـ حتى في حال القتال والتنازع ـ إلاّ عند الردة والمروق من الملة وخلع ثوب العقيدة.

لقد بلغ من توقير الإسلام لمبدأ الأخوة وإجلاله أن تبنّى جميع مستوياته ومعانيه، فهناك الأخوة الإنسانية العامة التي تحث على أن الأصل الإنساني واحد عند بدء الخليقة، وقد ذكّر القرآن بهذه الحقيقة الأصيلة أثناء العهد المكي من التنزيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[44]، ثم أكده مرة ثانية في بدايات العهد المدني، وهو تأكيد ينطوي على دلالة ومعنى عميق، في قوله عز وجل: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[45]

وملخص معنى الآية الأولى الواردة في العهد المكي، أن الناس إنما كانوا فعلا أمة واحدة على الإيمان بالله تعالى وتوحيده وإفراده بالعبودية، والعمل بمقتضى شريعته ومنهجه وفق الصيغة التي علّمها الله آدم عليه السلام، لكنهم ما لبثوا أن اختلفوا، حين نبذ بعضهم عوامل وحدتهم الكبرى، ولو لا كلمة قضائية سبقت من ربك، وهي تلك التي تمّ بمقتضاها تأجيل وإرجاء إدانة الكفر والخروج عن منهج الله إلى يوم الدين والجزاء والعقاب، لقضي بينهم في الحياة

الدنيا فيما فيه قد اختلفوا ونبذ بعضُهم بعضاً بغير وجه حق، فأدان الله الذين نكصوا عن منهجه وأنزل بهم ما يستحقون من عقاب، غير أن الكلمة القضائية الإلهية التي سبقت قد حكمت بأن الإدانة الكبرى والجزاء الأكبر أمران مؤجلان لليوم الموعود [(46)]

أما معنى الآية الثانية المنزّلة في العهد المدني، فهو تأكيد لمعنى الآية المكية السابقة، وفحواها أن الناس كانوا حقا خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الحياة على ظهر الأرض " أمة واحدة، على نهج واحد وتصور واحد، فهي إشارة إلى حالة المجموعة البشرية الأولى الصغيرة المكوّنة من أسرة آدم وحواء وذراريهم، قبل اختلاف التصورات والاعتقادات. فالقرآن يقرر أن الناس من أصل واحد هم أبناء الأسرة الأولى .. فلما نمت وتعددت وكثر أفرادها، وتفرقوا في المكان، وتطورت معايشهم، برزت فيهم الاستعدادات المكنونة المختلفة.. حينئذ اختلفت التصورات وتباينت وجهات النظر، وتعددت المناهج وتنوّعت المعتقدات، وعندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين " [(47)]

كما تبنى الإسلام أيضا أخوة الدم والنسب، إذا لم تكن على حساب العقيدة ومقتضياتها ومقرراتها، فقد استعمل الله تعالى كلمة (أخ) للدلالة على العلاقة الحميمة الصادقة التي تربط الأنبياء والرسل الكرام بأقوامهم وأممهم وأتباعهم، فقال عن قوم نوح عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [(48)]، وقال عن قوم هود عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [(49)]، وقال عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [(50)] وقال عن قوم لوط عليه السلام : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [(51)] وقال عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [(52)]... ودليل كون هذه الأخوة هي أخوة قومية، أن الله تعالى لم يُطلق لفظ أخ على شعيب عندما ذهب إلى قوم (الأيكة) لأنه من مدين . وذلك في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [(53)]، فلم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، كما قال عن مدين، وإنْ ذكر بعض المفسرين القدامى بأن الأيكة هم أيضا فرع من مدين أشركوا وعبدوا الأيكة وهي شجرة عظيمة فارعة الطول، شديدة الالتفاف .

فالإسلام لم يتجاهل هذا العامل الفطري الذي تُبنى عليه الكثير من أواصر القرابة، حتى أن نبيّ الله موسى عليه السلام دعا ربه أن يشدّ عضده بأخيه هارون عليه السلام: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴾[54] فهذا منزع يوصف بأنه من الفطرة أو النحيزة السليمة، شرط عدم تعارضه مع المبدأ الثابت وأصول العقيدة المقررة .

غير أن الإسلام ـ مع واقعيته التي تتجلى في موضوع الأخوة كأحسن ما يكون التجلي ـ اعتبر أخوة الإيمان والعقيدة هي الرابطة والآصرة التي لا تتقدم عليها رابطة أو آصرة أخرى، كما نلحظ ذلك في قول الله تعالى الحاسم لهذه المعادلة الصعبة في مجال الأواصر والعلاقات: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾[55] وذلك بتقديم أداة الحصر الجامعة المانعة.

وما ذلك إلاّ لكون نسبة الأخوّة الإيمانية الحقة تنطوي على روابط وأواصر مختلفة متنوعة، فهي تتضمن آصرة الانتساب والقرب، وآصرة المودة والصفاء والألفة، وآصرة الصحبة والخلّة، وآصرة التماثل في السجايا والطباع، وآصرة الارتياح وترك التكلّف والتصنع، وآصرة الاستجابة للحق، وآصرة حب المعروف وإنكار المنكر.. الخ، ومن ثمة فإن الأخوّة ـ في المنهج الإسلامي ـ آنسُ للنفس من نسبة الأُبوّة والبنوّة، لأنها ميلٌ اختياري، دفع إليه الإيمان النابع من أعماق معاقده الثاوية في القلب والنفس والضمير[56]

أما أخوة الدم والنسب ـ أو الأخوة القومية كما أطلقنا عليها ـ فبالرغم من تبني الإسلام لها ـ لارتباطها بالفطرة الإنسانية التكوينية ـ بيد أنه قدّم عليها آصرة الأخوة الإيمانية، وهذا حق فإن التاريخ يؤكد بأنه يقع أحيانا بين الإخوة الأشقاء وغير الأشقاء من الخصومات والمنازعات والشحناء، ما يفضي معه الأمر إلى سفك الدماء وانتهاك الحرمات وفي مقدمتها النفس البشرية، كما حصل بين ولدي آدم عليه السلام، وفق ما قصه علينا القرآن الكريم، وهو أمر حصل في الأمم القديمة، كما هو مشهود معلوم أيضا في الجماعات والأمم الحاضرة، وأمثلته كثيرة لا تكاد تُعد ولا تُحصى، وهي موثقة في سجلات أرشيف دور المنازعات القضائية والجنائية في شتى دول المعمورة.

وإذا كانت الأخوة تمثل الثمرة الأولى للدعوة الإسلامية، لأنها الحصن المنيع أمام المخاطر والمؤامرات التي تتهدد الجماعة المسلمة والمجتمع الإسلامي، فإن الجهاد في سبيل الله - وهو كما أشرنا الثمرة العملية للإيمان - يمثل سياج الحصن، فسرّ القوة والمنعة والنصر في تجربة المجتمع الإسلامي الأول أو المجتمع النموذج، إنما تكمن في صحة وإحكام منهج الدعوة، وسلامة قاعدة الأخوة، وإخلاص الجهاد، فهذا يعني أنه كلما تحقق تركيب صحيح لأجزاء هذه المعادلة، كان النصر حليف المسلمين حتما، لا يعوقه معوّق ولا يحول دونه حائل أو مانع.

إن التاريخ يثبت بوقائعه المتواترة، أن المجتمع الإسلامي الأول عندما أفلح في صوغ هذه المعادلة نظريا وعمليا، وفق منهج محكم دقيق، استحالت الآمال فيه إلى واقع ماثل، وأصبح الضعف قوة، حتى اعتقد الكفار وأعداء هذا المجتمع بأن الهزيمة لا تعرف طريقها إلى المسلمين، وأن المسلمين لا يعرفون طريقهم إليها، غير أنه عندما اضطرب تركيب أجزاء هذه المعادلة ونام "المسلمون عن دعوتهم، اختلت أخوّتهم مصدر وحدتهم وجماع قوتهم، وباعثة عزتهم، وتركوا جهادهم فتخلف النصر عنهم، واستبدل أعداؤهم بالخوف منهم، الجرأة عليهم فغلبوهم على أمرهم، واحتلوا أوطانهم." (57)

فنحن عندما نلتفت إلى الماضي، ونتفحص تجربة المجتمع الإسلامي الأول، نجد أن الأساس الأول المكين الذي شاد عليه الإسلام بناءه الاجتماعي يتمثل في الأخوة بين أفراده وأتباعه جميعا، وكان من المنطقي والطبيعي - وهو مجتمع يقوم على عقيدة تربط وتؤلف بين أبنائه - أن يجعل منها وشيجة ورابطة قوية تشدّ كل المسلمين وتؤلف بين قلوبهم وأرواحهم. إنه يجعل هذه الأخوّة علاقة حقيقية تزيد على علاقة الدم والنسب وتفضلها قيمة ومنزلة .. وقد كان الإسلام بذلك أول مَنْ أقام مجتمعا على أساس رابطة روحية - قيمية يجعل لها الاعتبار الأول، ويعتمد عليها في تقرير الحقوق والواجبات على السواء.

ففي المرحلة المكية كما هو معلوم، كان رباط الأخوّة هو الأساس المتين الذي تجمّع حول معانيه المسلمون دونما اعتبار لما كان بين العرب من أوضاع قبل مجيء الإسلام، ومن روابط ووشائج تقوم على قاعدة الأنساب والأجناس

والتعصب لها، بل ومعاداة الآخرين ومقاتلتهم على هذا الأساس في أغلب الأحيان، فلا تفاخر في الإسلام بالأنساب ولا اعتبار للجنس واللون والعرق، فالإسلام يرفض بقوة وحسم أن يفترق الناس أجناسا على أساس عرقي محض، وأن تفصل بينهم فواصل جاهلية من صنع أنفسهم وتصوراتهم البشرية القاصرة، ولهذا السبب فقد احتضن المجتمع الإسلامي الأول المسلمين من كلّ جنس ومن كلّ لون، فلم يجد الفارسي أو الحبشي أو الأمازيغي أو الرومي أو الإفريقي والسوداني حائلا يمنعهم من الانتساب لهذا المجتمع الفاضل، ومِنْ تصدّر المواقع المتقدمة والمنازل الرفيعة في معماره العام، ومناشطه المختلفة .

فكانت هذه الأخوة نوعاً جديداً من العلاقات لم يعهده المجتمع العربي قبل الإسلام، إذ كان ذلك المجتمع يقوم على رباط آخر قوامه النسب والجنس والجاه .. فجاء الإسلام ليجعل الترابط في مجتمعه يقوم على أساس روحي وفكري من وحدة العقيدة ووحدة الغاية، متخطياً في ذلك جلّ الروابط التي تحمل في طياتها عوامل ودواعي التشرذم والتفكك وبذور الوهن والانحطاط والزوال.

لقد رسم الإسلام بإقراره مبدأ الأخوة، سبيلا جديداً غير معهود في العلاقات الإنسانية التي كانت سائدة بين العرب في جزيرتهم وبين أبناء قبائلهم، وهذا المبدأ قاعدته العريضة تقضي بأن " يتحرك الفرد بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها، فلا يرى لنفسه كياناً دونها، ولا امتداداً إلا فيها .. وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال .. حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين، فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة !! وقدّر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلوه ولا نالوا منه إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف" [(58)]، وما يزال نموذج الإخاء الذي جسدته تعاليم الإسلام في المدينة بعد الهجرة الشريفة، مثالا يقتدي به أهل الإيمان كلما دعت ظروف الحياة ونوازلها إلى العمل بمقتضاه .

لا فرق في ذلك بين الهيئات والدول والأفراد، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الدكتور عبد الرحمن عزام، حيث كان قاصدا مكة المكرمة من الرياض، وكان بينهما سفر خمسة أيام بالسيارة في ذلك الوقت، وهو الثلث الأول من القرن العشرين المنصرم، وفي اليوم الثاني لاح له رجلان بين التلال والكثبان، فوجه سائقه

نحوهما، وعندما سألهما عن أصلهما ومقصدهما، لم يفهما لعجمتهما. ثم تبيّن أنهما من قندهار بأفغانستان وأنهما في طريقهما إلى مكة المكرمة. يقول "فأدركت أنهما يريدان الحج، فشقّ عليّ أن أتركهما وحملتهما معي إلى مكة. وفي الليالي التي قضيناها بالطريق، ورغم جهل بعضنا لغة بعض، كانت روح الأخوة ناطقة بكلّ حاسة. ولولا هذه الأخوة لما طوى هذان الرجلان الأرض، لا يملكان شيئا من حطام الدنيا، إلا أن الدعوة المحمدية قد آخت بينهما وبين البلوش والفرس والعرب ممن تنقلوا في أوطانهم"[59]

إن المجتمع المتحاب بروح الله الملتقي على نهج شريعته يقوم إخاء العقيدة فيه مقام إخاء النسب لأن رابطة الإيمان الحق لا بد وأن تربو على أي رابطة أخرى، فأواصر الأخوة في الله يُعزى إليها تجمع أبناء الإسلام في فجر بزوغ دعوته، وعلى هذه الأواصر اعتمد رسول الله ﷺ، في تأسيس الأمة النموذج أو الجماعة النموذج التي على كاهلها تحققت أمجاد هذا الدين، وبجهودها المباركة انداحت دعوته باتجاه شرق المعمورة وغربها .

لقد كانت الأخوة بين أهل الإيمان دائما عامل قوة ونصر وتمكين، كما كان ضعف وشيجتها عامل هزيمة واندحار وتقهقر، وهذا ما تؤكده صفحات تاريخ المسلمين في كلّ مراحله وأحقابه ودوله، وإذا كان لا بد من مثال في هذا الصدد ما دمنا قد أشرنا إلى التاريخ، فليكن هذا المثال من تاريخ المسلمين في الأندلس، إذ يروي التاريخ أن (الفونسو) الفرنجي ملك قشتالة، كانت تجمعه ببني ذي النون[60] أصحاب طليطلة روابط وعلاقات وطيدة قوية، سببها أن شقيقه (سانتشو) طارده وتعقبه، فلجأ إلى بني ذي النون في طليطلة، فوجد عندهم ملجأ آمنا، حيث أضفوا عليه حمايتهم إياه حتى نجا من أخيه، ولما آل إليه الملك عقد مع ملك طليطلة معاهدة أقسم في بعض موادها وبنودها على أن يعاون أبناء ذي النون على الاحتفاظ بملكهم، لكنه ما لبث أن غدر بتلك العهود والمواثيق المكتوبة، وحاصر أصدقاءه الذين حموه من أخيه في طليطلة، بل إن لجوءه إلى طليطلة إبان خلافه مع شقيقه، أصبح له من العوامل المساعدة على فتحها لأنه بات عارفا بها وبمسالكها وبالمداخل الضعيفة التي تؤتى منها، فكان ملوك طليطلة بحمايتهم الفونسو يشحذون السيف الذي سيُذبحون به، ويصنعون القيود والأغلال التي سيكبلون فيها .

ثم إن المعتمد بن عباد ملك اشبيلية لم يرغب في مد يد العون لإخوانه في طليطلة، لأنه باختصار كان شديد الطمع في أن تخضع له الأندلس المسلمة كلها، وكان في تلك المرحلة يريد أن يملك غرناطة وسرقسطة وبطليوس على نحو خاص، لكنه لا يستطيع ذلك لأنه يخشى (الفونسو) ملك قشتالة، فسعى لعقد معاهدة معه، وأرسل مفاوضه الوزير ابن عمار ففاز بعقد هذه المعاهدة، التي تعهد فيها الفونسو بمعاونة المعتمد ملك اشبيلية، بالجند ولوازم القتال لمحاربة جميع أعدائه من المسلمين، وتعهد المعتمد في مقابل ذلك أن يدفع مقادير كبيرة من المال إلى الفونسو، بالإضافة إلى عدم اعتراض سبيله في الإطاحة بطليطلة وضمّها إلى مملكة قشتالة، وكأن حكام طليطلة ليسوا مسلمين، وهكذا ضحى المعتمد بن عباد بأحد معاقل الأندلس - رغم أنها تحت الحكم الإسلامي - نظير أن يفوز ببضع إمارات أو مقاطعات وضمّها إلى ملكه، ولو كان ذلك بمعونة قوات نصرانية كانت تتربص بالتواجد الإسلامي كله في شبه جزيرة إيبيريا، وتنتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليه ومحقه، ورفع راية النصرانية على الأندلس.

فماذا كانت نتيجة الإخلال بنظام الأخوة الإسلامية؟ تقدمت قوات الفونسو إلى طليطلة وأسقطتها في السابع والعشرين من المحرم سنة 478 هـ، وأرجعتها إلى حظيرة النصرانية، بعد أن مكثت تحت الحكم الإسلامي ثلاثمائة واثنتين وسبعين سنة، وبعد أن جعل الفونسو طليطلة عاصمة حكمه تطلعت نفسه لاحتلال اشبيلية وضمها لملكه وحكمه المسيحي. عندئذ جزع المعتمد بن عباد وأدرك أنه بعقده تلك المعاهدة إنما كان يعين النصارى على نفسه وعلى كلّ المسلمين في الأندلس، وعاد باللوم والتقريع على وزيره ابن عمار الذي عقد ذلك الحلف أو المعاهدة، فقبض عليه وألقاه في السجن ثم أعدمه بعد ذلك، بالرغم أنه صاحب القرار في ذلك الحلف. بيد أن الجزع لم يرد فائتا، فقد نفذ القضاء، وأعانوا العدو على أنفسهم وعلى إخوانهم، وجدعوا أنوفهم بأيديهم، وخربوا بيوتهم بمعاولهم. وأخذت بعض الأقاليم تسقط تباعا، وتُضمّ لملك ألفونسو، وأيقن المعتمد أنه هالك لا محالة وأن سقوط مملكته باتت الوجهة الثانية المحددة لألفونسو وقواته المقاتلة.

اثر هذه الكارثة فكر المعتمد بن عباد في الأخوة الإسلامية والتضامن بين المؤمنين، بعد الحماقة التي ارتكبها في حق هذه الأخوة بتحالفه مع الأعداء ضد إخوان العقيدة والدين من أجل الاحتفاظ بملك زائل لا مناص من ذلك، مهما انداحت أمامه الأيام والسنون. فأرسل إلى يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في المغرب الإسلامي، رسالة وقعها معه عدد من ملوك الطوائف في الأندلس، ذكروا له فيها بأن النصارى قد اتفقت كلمتهم على انتزاع أراضي المسلمين وإسقاط ممالكهم، وأن المساجد قد غصّت بالقساوسة المتعصبين، ونشرت الصلبان فوق المنائر التي كان يؤذن فيها من قبل، وأخذت النواقيس تقرع بالقداس صباح مساء من بعض المساجد بعد أن كان لا يُسمع في ساحاتها الفسيحة إلا صوت الصلوات والابتهالات والأدعية، واختتموا كتابهم بقولهم: إن يوسف بن تاشفين قد غدا معقد الآمال، وأنهم يعتقدون أن الله قد اصطفاه لإنقاذ الإسلام في بلاد الأندلس.

وصل هذا الكتاب إلى زعيم المرابطين وكان مؤمنا قويّ الإيمان، فحفزه إيمانه إلى نجدة إخوانه والوفاء بحقوق الأخوة الإيمانية مهما كانت العاقبة. فطلب من أمير اشبيلية أن يمنحه حصن الجزيرة ليضع فيه حامية تكون ملجأ له إن هو هُزم، ويكون من خلالها على اتصال دائم بمملكته في إفريقيا. فتردد المعتمد بن عباد بادئ الأمر في الاستجابة لهذا الطلب، لكن ألفونسو أرسل إلى ابن عباد رجلا يهوديا لجباية الجزية، وطلب مبالغ باهظة جدا، فاستشاط المعتمد غضبا وقتل هذا اليهودي ومن معه بسبب إصرار هذا اليهودي بأن بعض النقود المدفوعة مزيفة، وأنه ينبغي أن يأخذ بدلها سفنا بحرية، وكان الهدف هو إضعاف مملكة اشبيلية كي لا تقوى على المقاومة. في هذه الظروف أدرك ابن عباد خطورة الوضع وأن ألفونسو منتقم منه لا محالة، فعجّل بتسليم الحصن إلى يوسف بن تاشفين، وكان ابنه يعارضه بشأن تسليم الحصن. فقال له قولته المشهورة (يا بني والله إني لأؤثر أن أرعى أبقار وجمال ابن تاشفين على أن أرعى خنازير الفونسو).. وفي شهر ربيع الثاني سنة 479 هـ عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة، وما كادت السفن تنشر قلاعها حتى صعد يوسف إلى مقدم سفينته وبسط ذراعيه نحو السماء ودعا ربه قائلا (اللهم إن كنتَ تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاحا للمسلمين فسهّل عليّ جواز هذا البحر وإن كان غير ذلك فصعبه عليّ حتى لا أجتازه). فمخرت سفنه

عباب البحر وبلغت شواطئ الأندلس بسلام، ثم راح ينظم جيشه ويوزع الأدوار وانضمت إليه جيوش الأندلس من إمارات وممالك مختلفة، وبدأ الأمان يسري في أهل الأندلس بعد أن ملأ قلوبهم الرعب جراء التفكير في مهاجمة الفونسو لحصونهم والفتك بهم وبممتلكاتهم، ولم يمض وقت طويل حتى أرسل يوسف بن تاشفين إلى الفونسو يخيّره بين الإسلام أو الجزية أو القتال. فردّ عليه بقوله: بأن اليوم هو الخميس وغدا الجمعة وهو عيدكم، وبعد غد السبت وهو عيد اليهود، وبعده الأحد وهو عيد النصارى، والموعد يوم الاثنين، غير أن المسلمين كانوا يعلمون غدر الفونسوا، فأخذوا أهبتهم، وإذا بجيش الفونسو يبدأ هجومه صبيحة الجمعة، فلم يباغتهم لتوقعهم ذلك منه، والتحم الجيشان بمكان يدعى الزلاقة، وكان ابن تاشفين قد ألقى بعشرة آلاف فارس من جيشه في المعركة بقيادة قائده الشجاع داود بن عائشة، بينما رابط هو بسائر جيشه - على طريقة خالد بن الوليد - في أحد السهول المحاطة بربوة عظيمة فلم يتفطن الفونسو لذلك، وظن أنه يخوض معركة سهلة بالنظر إلى قواته الهائلة التي انضم إليها متطوعون نصارى كثيرون من الجنوب الفرنسي، وبالرغم من بلاء المعتمد بن عباد بلاءً حسنا في تلك المعركة، إلا أن قواته اندحرت بالرغم من رفدها بعشرة آلاف مقاتل من جيش يوسف بن تاشفين تحت إمرة داود بن عائشة، وأيقن الفونسو بالنصر فبذل أقصى وسعه وألقى بكلّ قواته في المعركة. وفي هذه اللحظة الحاسمة باغته يوسف بن تاشفين بجيشه المنظم فانقضّوا على معسكرات الفونسو وفتكوا بكلّ حراسه واستولوا على كلّ الذخائر وأحرقوا جميع الخيام والمتاع.

وكان يوسف بن تاشفين يخوض المعركة بنفسه مخاطبا جنده بقوله (يا معشر المسلمين اصبروا لقتال أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة).. ولقد قاتل المرابطون يومئذ قتال الأبطال الذين يطلبون الشهادة، بينما قاتل النصارى قتال اليائس بسبب ما بذل من جهد أنهك قواهم وطاقتهم في المعركة الأولى وأيضا بسبب حرق المعسكرات وإتلاف المعدات، وقد سقط منهم عشرات الألوف، حتى غمرت الدماء ساحات القتال، واضطر الفونسو مع خمسمائة فارس من جيشه إلى الفرار، أما باقي جيشه المقدر بمائة وثمانين ألفا فقد حصده الموت على يد المرابطين [61].

هذه المعركة مشهورة في التاريخ الإسلامي باسم معركة الزلاقة، وكانت في الثاني عشر من شهر رجب سنة 479 هـ . وكان من بركتها أنها أزاحت كابوس الموت والرعب عن المسلمين، وأخرت سقوط الأندلس أربعة قرون كاملة، بعد أن وحّد القائد يوسف بن تاشفين بين حكام الطوائف ممن ساد الشقاق والتنازع بينهم حتى عصف بمصدر القوة والتمكين للمسلمين في بلاد الأندلس .. إن هذا النصر إنما كان ثمرة من ثمرات الأخوة الإسلامية، ودليل ذلك أن المرابطين هبوا لنجدة ملوك الطوائف وأهل الأندلس وهم لم يروهم من قبل، وليس بينهم قرابة قومية أو عرقية، بل الوشيجة الوحيدة التي تربطهم بهم إنما هي رابطة الإسلام والأخوة الإيمانية، التي تقتضي لزوما واجب مناصرة المسلم لإخوانه بما هو واقع تحت طائلته مما هم بحاجة إليه .

إن الأخوة أخت الإيمان، كما أن التفرق أخو الكفر، وأول القوة قوة الوحدة، ولا وحدة بغير محبة وأخوة وتضامن، إذ بهذه الأخوة ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة التي هي أوثق الروابط وأغلاها وأمتنها .

4 ـ العبادة والأخلاق:

العبادة والأخلاق في الإسلام نسق فريد، وهما جانبان متلازمان متلاحمان، كأنهما وجهان لعملة واحدة، لا ينفكان إلا في عالم المفردات والمصطلحات . ولا ريب أن مفهوم العبادة في الإسلام ومنهجه واسع شامل لكلّ حركات ومنجزات الإنسان المسلم المستصحب في نيته وضميره طاعة الله والقيام بأوامره ومقاصد شرعه ومنهجه، بيد أن المقصود هنا المناسك التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصوم وحج .

فلهذه العبادات حِكمُها العظيمة التي يحيط العقل ببعض دلالاتها وثمراتها وفوائدها، ويعجز عن الإحاطة ببعضها الآخر، وحسبُ هذا العقل أن يدرك بأن الله تعالى إذا تعبّد الإنسان بمناسك معينة أو مخصوصة، فإن فيها الخير كله، فهو لا يتعبّده إلا بما يُصلح نفسه، ويعود عليه بالخير والبركة والتزكية في حياته الروحية والمادية والاجتماعية وغيرها .

لقد جاءت شعائر الإسلام كلها لتؤكد حقيقة معنى الوحدة . فصلاة الجماعة عبادة يومية جعلت منها الشريعة السمحة مظهرا من مظاهر الإتحاد

والانسجام والتآلف، فالمسلمون يجتمعون عدة مرات في اليوم الواحد في تظاهرة وحدوية تنظم صفوفهم خلف إمام واحد وفي اتجاه قبلة واحدة، و قلوبهم نحو هدف واحد، هو طاعة الله وامتثال أمره وأداء فرضه . كما أن صلاة الجمعة، مظهر آخر من مظاهر الاتحاد والاجتماع للنظر في راهن واقع الأمة وما تعيشه من أوضاع وما تجابهه من تحديات ومشكلات، وهي دورة تعبوية أسبوعية إسلامية عبادية تجسد جانبا من جوانب حرص المنهج الإسلامي على وحدة الأمة.

فالصلاة فرضها الله تعالى على المكلفين خمس مرات في اليوم والليلة، وهي تشي بوحدة المسلمين في الغاية والهدف، فقد جعل الله تعالى مواقيتها واحدة وركعاتها واحدة وهيئتها واحدة لا تختلف من بلد إلى بلد، أو من جيل إلى جيل، ويتمّ الإعلان عنها بصوت ندي فيستجيب المؤمنون للنداء، ويجتمعون كلما سمعوا هذا النداء في بيت من بيوت الله تعالى يناجون ربا واحدا ويؤدون أعمالا واحدة ويتجهون إلى قبلة واحدة، فأي وحدة أبلغ وأعمق من وحدة المصلين في الجماعة، يصلون خلف رجل واحد هو الإمام، ويبتهلون إلى رب واحد هو الله الواحد الأحد، ويتلون كتابا واحدا هو القرآن، ويتجهون إلى قبلة واحدة هي الكعبة الشريفة في أول بيت مبارك وضع للناس، ويقومون بأعمال واحدة من قيام وقعود وركوع وسجود، إنها وحدة نفذت إلى اللباب ولم تكتف بالقشور، وحدة في النظرة والفكرة، ووحدة في الغاية والوجهة، ووحدة في المظهر والمخبر، وبذلك يصح الجزم بأن الإسلام دعا أبناءه إلى صلاة الجماعة ليتعارفوا فلا يتناكرون، ويتقاربوا فلا يتباعدوا، ويتحابوا فلا يتباغضوا، ويتصافحوا فلا يتشاحنوا، لأن الحكمة منها دالة بذاتها على جمع الكلمة والتعارف والتآلف [(62)]

إن ركعات الصلاة وهيأتها لا تتغير جزئيا ولا كليا عندما يؤثر المسلم أداءها لسبب أو آخر بمفرده . غير أن الإسلام ضاعف أجرها بضعا وعشرين مرة أو يزيد إذا اختار المسلم أداءها إلى جانب إخوانه في صف واحد أو في صفوف متناسقة، وهذا الإغراء ينمّ عن مدى ترغيب الإسلام في الانضواء إلى الجماعة ونبذ العزلة، والانخراط في المناشط العامة التي تؤديها الأمة المسلمة مما يحتاج إليه المجتمع . وهذا أمر يدلّ على أن الإسلام يكره للمسلم أن ينحصر في نطاق نفسه، أو أن يؤثر مصلحته الخاصة على مصلحة الجماعة أو المجتمع الذي يحيا بين جنباته . فيتضح من ذلك أنه لمقصد أن يمتزج المسلم بالجماعة فقد "شرع الله

الجماعة للصلوات اليومية، ورغب في حضورها وتكثير الخُطى إليها، ثم ألزم أهل القرية الصغيرة أو الحي الآهل أن يلتقوا كلّ أسبوع لصلاة الجمعة، ثم دعا إلى اجتماع أكبر في صلاة العيد جعل مكانه الأرض الفضاء .. وأمر الرجال والنساء بإتيانه إتماما للنفع وزيادة في الخير " (63)

إن الصلاة من أعظم وأجلّ الفرائض والعبادات الجامعة للمشاعر والقلوب، ففي أجوائها يشعر المسلم في كلّ يوم يتصرّم، برسوخ معنى الوحدة والانتماء للأمة، فهو في الصلوات الخمس يتجه إلى الكعبة الشريفة بمكة المكرمة، قبلة المسلمين أجمعين، فيحس بأنه واحد من ألوف الملايين من إخوان العقيدة ممن يتجهون إلى هذه القبلة، فيشعر بأن قلبه مرتبط بالله رب العالمين، ومرتبط بالمسلمين في شتى بقاع المعمورة بهذه القبلة التي توحد قلوبهم ومشاعرهم وغاياتهم (64)

ثم إن المقيم لهذه العبادة على النحو المرسوم يكون رضيّ النفس، حسن الخلق، جيد المعاملة، عضوا نافعا في المجتمع الذي يعيش فيه، وإذا كان الفرد صالحا صلحت الجماعة أيضا بالتبعية لذلك كما هو معلوم. فهذا هو على الراجح السر في حث الإسلام على الجماعة والتنويه بعظيم منزلتها، التي لا تُدرك حقيقتها من الناحية العملية إلا عن طريق أداء الصلاة وفقه كنه جميع العبادات الجماعية أو ذات البعد الاجتماعي، فهي الأمر الكفيل بانتفاء فوارق اللون وفوارق الثراء وفوارق الدم، ونحو ذلك من الفوارق، فيشعر الفرد شعورا حقيقيا بأنه للجماعة، وتشعر الجماعة بأنها للفرد.. لكن يُلاحظ أن هذه الحكمة لا تتحقق بصفة تامة أو على الوجه المطلوب إلا إذا أقبل المصلي على عبادته بوعي كامل ويقظة حادة وتأمل عميق، أما إذا تجردت الصلاة والعبادة من هذا الوعي وإدراك المقاصد فإنها ربما تكون قليلة الثمرة أو عديمة الجدوى (65)

العبادة الثانية من أركان الإسلام هي الزكاة، هذه العبادة العظيمة التي تستهدف دعم صلة المسلم بإخوة العقيدة والمصير والتطهّر من رذيلة الشح ومنازع سطوة النفس، فالزكاة سلوك تحرري فاعل من إسار هوى النفس وأنانية الذات، وهي أيضا عمل وحدوي من صميم الأعمال والمنجزات الداعمة المعضدة

لقوة المجتمع من الداخل، لكونه يسهم في سد ثغرات الضعف والاحتياج والمسغبة التي يخلفها الفقر في كيان المجتمع المسلم .

لا ريب في أن الجماعة التي ينتشر فيها الإملاق والاحتياج والعوز، تشتعل فيها العداوة والبغضاء والحقد، وتكثر الجرائم وتتفكك الأواصر، فيهتز كيان الأمة بما يشيع بين جنباتها من تقاطع وتدابر وتعادي، لذلك شرع الله الزكاة كوسيلة عملية سلوكية تقوي وشيجة المودة بين الأغنياء والفقراء، وتجعل منهم أسرة واحدة متكافلة متعاونة على الخير العام، فالزكاة إذن وفق هذا الطرح أو المفهوم إنما هي لمصلحة الجماعة والمجتمع، فهي كفالة لا غنى عنها لسد حاجات الفقراء والمحتاجين، بما تهيئه لكلّ عضو منهم من كرامة الشعور بالحياة الشريفة الطيبة التي ينبغي أن تضمن حدها الأدنى الجماعة المؤمنة [66]

أما صوم رمضان من كلّ عام فهو ينطوي على أبعاد ودلالات كثيرة، من أهمها تربية المسلم وإشعاره بأنه فرد من أمة كبيرة لها رسالتها وقسماتها العقدية والاجتماعية والحضارية المتميزة، ففي توقيت الصيام بطلوع الفجر ونهايته بإقبال أول الليل أثناء الغروب، حكمة لتوحيد حركة المسلمين وضبط مناشطهم العامة مع إضفاء صبغة خاصة عليها، فمعنى الوحدة والتآلف محسوس في كلّ مضامين وأداءات عبادة صوم رمضان .

فلا ريب أنه من أبرز وأعظم المعاني التي يُجدِّد صوم شهر رمضان بعثها من جديد، معنى الوحدة التي تجمع المسلمين قاطبة من شرق الأرض إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، حيث يشعر بها المسلم العربي في بلاد العرب، والمسلم الأندونيسي والماليزي والأفغاني والباكستاني والصيني في بلاد آسيا، والتركي والأوروبي المسلم في أوروبا، والأمريكي المسلم في أمريكا، كلهم قد وحَّدهم رمضان في عبادةٍ واحدة لله رب العالمين عبادةٍ .. لها الكثير من التأثير على نظام حياتهم، حيث يستيقظ الجميع في وقت السَحَر ليتهيؤوا للصيام، كما يستعد الجميع أيضا لتناول طعام الإفطار في وقت الغروب .

ولهذه العبادة الجليلة تأثير عقدي وفكري ونفسي عميق على الإنسان المسلم، إذ شاءت الحكمة الإلهية أن يكون نزول القرآن في شهر الصوم، ليكون المحور الجامع لكلّ شؤون المسلمين، منه يستمدون مقومات حياتهم، ويسترشدون

بهداياته الشاملة لكل مجالات الحياة والنشاط الإنساني. كما أن لهذه العبادة تأثيراً روحيا وأخلاقيا كبيرا مشهودا ، إذ تغص المساجد بجمهور المصلين المقبلين على تلاوة كتاب الله تعالى وتدبر أحكامه وهداياته بخشوع واستكانة لله، فتصفو الأرواح وتزكو النفوس، ويحس الجميع بوحدة الأمة الكبرى من خلال الارتباط بكتاب الخلود في هذا الشهر العظيم . إن أمة تتوحد في نظام حياتها ، وفي القدرة على ضبط نوازع شهواتها ومآرب غريزتها ، وتتوحد في مرجعية فكرها وعقيدتها ومنظومة حياتها في شتى المجالات، كما تتوحد في مشاعرها وأشواقها وآمالها ، ويتحقق لها ذلك من خلال عبادة واحدة، وفي شهر واحد، لابد أن تكون مهيأة للنصر والعزة والمجد ، ولابد أيضا أن تكون عصية على أعدائها ومناهضي مشروعها ورؤيتها ومنهجها في بناء الإنسان والحياة والحضارة.

وصفوة القول هنا أن صوم رمضان عبادة وقربى وركن جليل يوحد بين المسلمين في أوقات الفراغ والعمل، وأوقات الطعام والشراب، كما يضفي على علاقاتهم وتصرفاتهم وسلوكاتهم وقعا فريدا ، بما يفرغ عليهم من سكينة الإنابة إلى الله، وبما يرطب ألسنتهم بالذكر والتسبيح ويعفها عن التجريح والإيذاء والتخوّض في أعراض خلق الله، كما يسدّ عليهم منافذ الشر والتفكير فيه، ويملأ قلوبهم وأفئدتهم بمحبة الخير لعباد الله وخلائقه، ويغرس في نفوسهم وعزائمهم خلق الصبر ومجابهة مشاق الحياة بثبات مهما عظمت أو اشتدت وطأتها (67)

ولنا أن نتصور أو أن نفترض لو يمكن أن تستمر معاني هذه الوحدة التي نحسها في شهر الصوم قائمة في واقع حياة الأمة المسلمة وهي رقم ضخم جدا من عدد سكان الأرض، وهي التي تتوزع أراضيها في كل جهات المعمورة، وهي التي تمتلك من الثروات والخيرات ما يجعلها من أغنى أمم الأرض، لو استمرت معاني هذه الوحدة في الحضور، ولو تمّ تفعيلها في الواقع الحي المتحرك، هل هناك قوة في الأرض تستطيع الوقوف في وجه هذه الأمة وتحريف وجهتها في الحياة إلى غاية أو وجهة لا ترغب فيها ؟!

ويُعدّ الحج إلى بيت الله الحرام من أبرز المظاهر العبادية التي يتجلى من خلالها الجانب الوحدوي، إذ إنه أعظم مؤتمر يجتمع فيه المسلمون من جميع أقطار الدنيا

تلبية لنداء ربهم وتأدية مناسكهم في عبادة جماعية تضم المسلمين على اختلاف لغاتهم وألوانهم وأجناسهم وأقطارهم وأحوالهم، في قلوب خاشعة متبتلة خاضعة لم يوحدها سوى الإسلام ولم يجمع بينها إلا التقوى والعمل الصالح.

وفي الحج دعوة صريحة واضحة إلى توحيد الكلمة بين المسلمين، فهو تجمّع ضخم للمسلمين، يوحد بينهم ويوثق عراهم ويجمع شتاتهم، ويؤدي إلى تعارف أبناء الأمة الإسلامية، وتبادل المنافع المادية والمعنوية بينهم، وفيه كذلك إذابة للفوارق الطبقية والمادية، ودعوة إلى أن يكونوا كالجسد الواحد، ولا أدل على ذلك من لباس الإحرام الموغل في البساطة، وما يرمز إليه من الوحدة والتماثل بين الفقراء والأغنياء، والحكام والمحكومين، والأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، ففي صعيده الطاهر تختفي تماما جميع الفوارق التي تمايز بين الناس بسبب اللون أو الجاه أو المال أو المكانة الاجتماعية والسياسية، أو غير ذلك من الاعتبارات .

إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يقصدون مكة المكرمة طائعين مختارين لهدف فريد هو أن يعلنوا بمخبرهم ومظهرهم عبوديتهم لله الواحد الأحد، وليرسخوا الوحدة بينهم ولينبذوا التفرق والتنازع والتعادي والتنافر والتشاحن . فالحج أساسه وقوامه إخلاص العبودية لله، لكن ترجمة ذلك عمليا يتجسد في تحقيق وحدة الأمة وإحلال الألفة والمودة والرحمة بين شعوبها وتفعيل التناصر والتضامن بين كلّ المسلمين، لأن هناك تلازما حقيقيا بين التوحيد والوحدة، وهذا التلازم يشعر به المسلم بقوة في موسم الحج، فهذه حقيقة تجلي أحد مقاصد هذا الركن الجليل، لأن الحج ليس مجرد رحلة أو مظاهر وشعارات وتلاوات ونسك، بل هو تطبيق عملي حي لمقررات العقيدة الصحيحة، واستنباط للعبر والدروس التي تؤكد من خلال مناسك الحج في مؤتمره الجامع، على أن الأمة الإسلامية لكي تسترجع مكانتها وعافيتها ودورها في الشهود الحضاري، لا مندوحة عن أن يتلازم عندها وفي كلّ حياتها التوحيد والوحدة اعتقادا وعملا [68]، غير أن السؤال الكبير الذي يجب أن يُطرح وأن يستمر التذكير به على الدوام هو " هل يظل المسلمون في مواسم حجهم قانعين بهذا الموقف السلبي الذي لا يعمل فيه إلا العقل الباطن البطيء الفاتر؟ أليس يجب أن يتقدموا خطوة إيجابية توضع فيها الخطط المفصلة للوحدة الإسلامية الشاملة ؟

لقد آن للأمة الإسلامية أن تخرج من قوقعة سجن الفرديات المنعزلة والقوميات المنفصلة، إلى محيط الجماعة الكبرى التي يرون منها نموذجا مصغرا في هذه الرحلة المقدسة"[69]، ذلك أن فقه مقاصد ومرامي العبادات والشرع جملة أمر مطلوب إذ به تتحقق الثمرة وتتجسد الغايات.

هذه العبادات اليومية والموسمية التي شرعها الدين الإسلامي مع غيرها من الرغائب والتوجيهات والأحكام الأخرى تكشف عن مدى اهتمام الشريعة الغراء ببناء مجتمع متحد متعاون متكافل يكون حقا كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوص. ولقد أكد الرسول ﷺ، على مدى أهمية وقيمة الألفة والتضافر والاتحاد منذ اللحظات الأولى لدخول المدينة المنورة، ونفذ ذلك عمليا في حركة التآخي الفريدة حيث آخى بين الطلائع المؤمنة من المهاجرين والأنصار، فقد كان المجتمع الإسلامي حينئذ في مستهل تشكيله وفي بداية نشوئه، وهو مقبل على امتحان عسير تفرضه طبيعة الدين الجديد والوضع السياسي والأمني المحيط بالمدينة المنورة، فهو أحوج ما يكون إلى الوحدة ورص الصفوف وإزالة أسباب وعوامل الاختلاف والتفرق ليتمكن - على ضعف إمكاناته - من الصمود في وجه الأعاصير الهابّة التي توشك أن تعصف من مختلف الاتجاهات.

لقد قام رسول الله ﷺ بالمؤاخاة بين المسلمين ليجعل من الإسلام محور وحدتهم وأساس ارتباطهم وقطب حركتهم، وليجعل هذه القرابة الجديدة أقوى من قرابة الرحم والنسب، وليجعل هذه الرابطة أوثق من رابطة القبيلة والعشيرة ومن كلّ الوشائج والارتباطات الأرضية الزائلة. لقد قضى بذلك ﷺ، على العصبيات الجاهلية والنزعات المختلفة التي كانت تمزق المجتمع آنذاك وأحل محلها حالة من الألفة والأخوة لم يذق المجتمع طعمها من قبل، فصنع من ذلك المجتمع الناشئ الصغير قوة كبرى دافعت عن الإسلام واحتضنته بقوة واقتدار، وأفشلت كل المؤامرات التي استهدفت استئصاله والقضاء عليه، ثم حملت رايته المنتصرة لترفعها فوق ربوع الجزيرة العربية في مدة زمنية يسيرة ثم منها إلى بقية أقطار المعمورة.

ولعل من المناسب في هذا المقام الإشارة إلى أن الإسلام لم يُرد للعبادات المقررة في شريعته أن تقتصر على بعد التزكية الفردية فحسب، وإنما حرص أتم الحرص على أثرها الاجتماعي وعلى مردودها الجماعي، لأن هدفه المجتمع

وصلاحه، والعبادات من وسائل هذا الإصلاح والتأهيل، ولأن المفروض أيضا أن الأمة الإسلامية متساندة متضافرة في كلّ ظروفها ومتغيرات أحوالها، فإن مسؤولية الفرد في المجتمع الإسلامي عن الجماعة، ومسؤولية الجماعة عن الفرد، مسؤولية عظمى ليس لها حدود، لذلك كره الإسلام للفرد المسلم وأنكر عليه أن ينعزل ويستوحش ويشرد عن المجتمع وحراكه ونشاطه وتطلعاته، وبالمقابل أيضا كره للجماعة أن تهمل العناية بالفرد، وأوجب عليها أيضا أن تصون مصالحه وتحترم حريته وخصوصيته وحقوقه، فالفرد في المجتمع الإسلامي جزء في كلّ، يكمّله ويكتمل به، ويُعطيه ويأخذ منه، ويحميه ويحتمي به. ولا ريب في أن المسؤولية الفردية عن الجماعة، والمسؤولية الجماعية عن الفرد من أوضح مقاصد العبادات المفروضة في شريعة الإسلام ومنهجه الفريد [70]

أما الأخلاق فهي قرينة العبادات، لا تنفكّ عنها في أعمال وسلوكات وعلاقات الإنسان المسلم، ويُقصد بها في الغالب مجموع المبادئ والقواعد المرشدة والمنظمة للسلوك الفردي والجماعي على نحو يشمل جميع جوانب وشؤون العلاقات والممارسات الاجتماعية والإنسانية، وتتميز الأخلاق في الإسلام بوصفها مرسومة أو موجهة بالوحي وإن بدا عليها الطابع الإنساني المحدد لأساسيات السلوك، لذلك نلاحظ أن العقيدة الإسلامية تمنع المؤمن من أن يكون أنانياً يخص نفسه بما فاءه الله عليه من نعم وأفضال، وهو يعلم أن في ذلك حرمانا لعيال الله وللجماعة المسلمة من الخير الذي حبته به العناية العليا، فالعقيدة الإسلامية تهذب سلوكه فتجعل منه عضوا صالحا يكمّل إنسانيته بالإحساس بأهله وجيرانه وأمته وبالناس أجمعين، وهذه الأخلاق تنمي في روحه مبدأ الوفاء والانتماء والمودة للجماعة، فيضحى من هذه الأرضية معتقدا بأن هذا الإحساس إنما هو من متممات إيمانه، ومن مستلزمات استخلافه في الأرض[71]

فيتضح بذلك أن الأخلاق الإسلامية إنما هي رديفة العبادات، وأنها من أهم دعامات بناء الأفراد وتهذيب النفوس والتمكين للإصلاح الاجتماعي، وتوطيد عرى التلاحم والتضافر والتضامن داخل نطاق شبكة العلاقات والتواصل في المجتمع الإسلامي.

نتائج مستخلصة:

بعد هذه المعالجة التي سعت لتوصيف وتقصي أهم أو أبرز أسس ومقومات الوحدة الإسلامية، كما تفيد به وتفصح عنه معطيات ونصوص المنهج الإسلامي والأدبيات الفكرية الإسلامية بصفة عامة، وإنْ كانت لا تعني الحصر بطبيعة الحال، بل تعني الأسس الأهم، التي لا مندوحة بحال عن تجاوزها، أو التقليل من آثارها في فهم حقيقة الوحدة الإسلامية.. نحاول أن نثبت بعض النتائج المستفادة أو المستخلصة من هذا البحث:

1ـ هذه الأسس إنما هي بمثابة الأركان التي تجعل فكرة الوحدة بين المسلمين تستند إلى جوهر أو إلى حقائق مطلقة وراسخة في أصول الدين لا يكتنفها أيٌّ مقدار من الشك، غير أن هذه الأركان أو الأسس وإن كانت من قبيل المسلمات من جهة الدين وأصوله، فهي لا تمثل خطابا وحدويا قائما بذاته في المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها، بقدر ما هي قيم عامة أو تعاليم كليّة، لا ينفكّ عنها السلوك الإسلامي القويم المُضاء بهدي الإسلام وإرشاداته في الفكر والحركة .

2 ـ الأوضاع العامة في الأمة الإسلامية، وكذلك ازدواجية الشخصية على المستوى الفردي للإنسان المسلم، تدلّ على وقوع ما يشبه حالة من حالات الانفصام والتباعد الفظيع بين المقومات العقدية والفكرية، وبين السلوك والواقع والمعاملة في حياة الأفراد وأيضا في شبكة العلاقات الاجتماعية للأمة في سياقها الواسع.

3 ـ إحساس الأمة المسلمة بضرورة اللقاء والتناصر والتعاون .. هو إحساس منطقي وواقعي أيضا، لأنه منبثق من أصول معتقداتها ومن مرجعيتها الأولى .. ناهيك عن إدراكها على صعيد الواقع الماثل لمخاطر التفرّق والتشرذم الذي أضرّ بها ضررا فادحا، في عالم لم يعد يعير أيّ اهتمام للضعفاء .

4 ـ ينبغي على الأمة الإسلامية في هذه الانعطافة التاريخية الحساسة، أن تبادر إلى تصحيح أوضاعها، وأن تدرك عناصر القوّة الحقيقية في كيانها، كما يجب أن يكون لها تشخيص صحيح للأسباب التي كانت وراء الواقع السيء الذي تعيشه، والأهم من ذلك أن تضبط منهجية عمل، من أجل تفعيل

عناصر القوة الكامنة في مرجعيتها وفي موروثها العقدي والثقافي، بغية تجاوز وتخطي الواقع السيئ المنظور أو القائم بالفعل، والقضاء على كلّ عوامل الضعف والوهن والتراجع العلمي والحضاري .

5 ـ الخطاب الوحدوي في الفكر الإسلامي المعاصر، مشروع حضاري يستند إلى كليات حقائق الوحي ومسلمات الدين والشريعة والسلوك الإسلامي الأقوم .. كما أنه يروم ويتطلع إلى دحض كل ألوان وأوجه التناقضات والسلبيات التي تنخر كيان هذه الأمة، من مثل المنازع الطائفية والفئوية والحزبية الضيّقة، لأنه انبثاق من جوهر الرسالة والنبوّة . فهو تفكير يهدف إلى تجسيد وحدة الغاية ووحدة المضمون المنبثقة من وحدة النص.

6 ـ الوحدة الإسلامية في المنهج الإسلامي تستهدف إعزاز الأمة الإسلامية وإحياء دورها الحضاري الريادي بوصفها أمة شاهدة وأمينة على حقائق ومضامين الوحي كما تناهى إلى الرسالة الخاتمة. ومن ثمة فإن الإطار الجامع الذي تمثله هذه الأسس في حدّه الأدنى، إنما يؤمّن أرضية للقواسم المشتركة بين جميع المسلمين .. فالأسس والمقوّمات الجامعة من شأنها تقريب أفراد الأمة وتياراتها الفكرية والمذهبية، فضلا عن كونها تمثل جوهر هويّة الأمة وفكريّتها وأهم القسمات التي تميّزها عن غيرها من أمم المعمورة .

الهوامش والإحالات:

(1) النساء: 6

(2) تفسير ابن كثير، ج1، ص 494

(3) الذاريات: 56

(4)محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج3، دار القلم ومكتبة جدة، ط5، 1986م، ص 259

(5) رواه البخاري ومسلم .

(6) الأنعام: 161

(7) موطأ الامام مالك، كتاب الكلام رقم (990)

(8) الحديث في الصحيحين، ولفظه الوارد: (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: " بُني الإسلامُ على خمس : شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحجّ، وصوم رمضان ") (رواه البخاري ومسلم)

(9) محمد رشاد سالم، المدخل إلى الثقافة الإسلامية، دار القلم، الكويت ط9، 1987 م، ص 176

(10)محمد الغزالي، عقيدة المسلم، دار الشهاب، باتنة، 1985 م، ص56

(11) الزمر: 3

(12) المرجع السابق نفسه، ص 61

(13) عبد الرحمن عزام، الرسالة الخالدة، ط5، دار الشروق، القاهرة، 1979 م، ص 38

(14) الحجر: 9

(15) فصلت: 41، 42

(16) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 6، 1991 م، ص 29، 30

(17) وجيه كوثراني " الوحدة الإسلامية بين الشعار والمنهج "، مجلة رسالة الجهاد، مالطا، العدد93، نوفمبر 1990 م، ص 125

(18) الأنبياء 92

(19) المؤمنون: 52

(20) آل عمران: 103

(21) التوبة: 71

(22) أحمد عمر هاشم، وحدة الأمة الإسلامية في السنة النبوية، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ط1، 1427 هـ / 2006 م، ص 25

(23) القيامة: 16، 17، 18، 19

(24) النجم: 3، 4

(25) النساء: 80

(26) الترمذي ـ الفتن ـ باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم 465

(27) الموطأ ، رقم 694

(28) رواه البخاري في صحيحه ، رقم 6868

(29) رواه البخاري في كتاب الأدب برقم 6011

(30) رواه البخاري في كتاب الأدب ، ومسلم في كتاب البر

(31) هو المقداد بن عمرو ، وقد قيل له المقداد بن الأسود ، لأنه ربي في حجر الأسود بن عبد يغوث الزهري، فتبناه وكان أسود اللون (سير أعلام النبلاء 385/1)

(32) أبو لبابة الطاهر حسين وآخرون، الطريق إلى الوحدة الإسلامية ، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة ، سلسلة دعوة الحق، العدد 156 ، الصادر في ذي الحجة 1415 هـ ، ص15

(33) تصح عبارة الدين الجديد ، عند الاستعمال الخاص، لأن مشركي قريش اعتبروا ما دعاهم له رسول الله ﷺ ديناً جديداً ، مخالفاً لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم .. لكن العبارة لا تصح في الإطلاق العام، لأن الإسلام هو دين الله تعالى ، جاء به الأنبياء والمرسلون، ودعوا له أقوامهم، لذلك اعتبر الله تعالى تكذيب قوم نوح لما جاءهم به نوح عليه السلام، تكذيباً لجميع المرسلين، بالرغم أنه لا يوجد مرسلون قبل نوح، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(الشعراء: 105) .. وما ذلك إلاّ لكون الدين عند الله إنما هو الإسلام.

(34) المرجع نفسه، ص 16

(35) الأحزاب: 36

(36) محمد سرور زين العابدين، " الوحدة الإسلامية " ، مجلة السنة ، مركز الدراسات الإسلامية ، برمنغهام (بريطانيا)، العدد العشرون، رمضان 1412 هـ، ص 109

(37) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، مرجع سابق، ص 61

(38) طه: 64

(39) النساء: 115... هذه الآية الكريمة من سورة النساء، استشهد بها الإمام الشافعي في الرسالة ، وجعلها أساساً في إثبات حجية الإجماع، غير أن أئمة وفقهاء وأصوليين كثيرين لم يسلموا له بذلك، منهم على سبيل المثال : الإمام الرازي في المحصول، والإمام الغزالي في المستصفى، والإمام الشوكاني في إرشاد الفحول، الذي يقول: "لا نسلم أن المراد بسبيل المؤمنين في

الآية هو إجماعهم، لاحتمال أن يكون المراد سبيلهم في متابعة الرسول، أو في مناصرته، أو في الاقتداء به، أو فيما به صاروا مؤمنين، وهو الإيمان به، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال" .

(40) أخرجه الترمذي، وحسنه وصححه الألباني .

(41) أبو لبابة الطاهر حسين وآخرون، الطريق إلى الوحدة الإسلامية (مرجع سابق)، ص 86

(42) محمد الغزالي، ليس من الإسلام (مرجع سابق)، ص63

(43) أبو لبابة الطاهر حسين وآخرون، الطريق إلى الوحدة الإسلامية (مرجع سابق)،ص 84

(44) يونس: 19

(45) البقرة: 213

(46) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الأمة الربانية الواحدة، مؤسسة الريان، بيروت، ط2، 1996 م، ص 18

(47) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط11، دار الشروق، بيروت، 1985 م، المجلد الأول، ص 215

(48) الشعراء: 105 ـ 106

(49) الشعراء: 123 ـ 124

(50) الشعراء: 141 ـ 142

(51) الشعراء: 160 ـ 161

(52) الأعراف: 85

(53) الشعراء: 176 ـ 177

(54) طه: 29، 30، 31

(55) الحجرات: 10

(56) محمود بابللي، معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، سلسلة (دعوة الحق)، العدد 38، جمادى الأولى 1405 هـ / فبراير 1985 م .

(57)محمد عبد الله فودة، الطريق إلى النصر، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، سلسلة دعوة الحق (العدد 45)، ذو الحجة 1405هـ، ص 90

(58) محمد الغزالي، فقه السيرة، مكتبة رحاب، الجزائر 1987 م، ص 179 ـ 180

(59) عبد الرحمن عزام، الرسالة الخالدة (مرجع سابق)، ص 56 ـ 57

(60) بنوذي النون : سلالة بربرية مسلمة منحدرة من قبيلة هوارة الزناتية، تولى أفرادها حكم طليطلة منذ سنة 427 هـ/ 1036 م، في سياق ما يسمى بحكم الطوائف، وذلك على اثر سقوط الدولة الأموية في الأندلس سنة 422 هـ/ 1031 م، حيث استقلت كل طائفة أو أسرة بحكم إقليم من بلاد الأندلس، أشهر حكامها : إسماعيل الظافر بالله بن ذي النون، ويحي المأمون بن إسماعيل، ويحي القادر بالله بن إسماعيل بن يحي .

(61) محمود حمدي زقزوق، الوحدة الإسلامية ما لها وما عليها، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط1، بيروت، 1994 م، ص 133 ـ 134

(62) عمر يوسف حمزة وأحمد عبد الرحيم السايح، معالم الوحدة في طريق الوحدة الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1993 م، ص 108

(63) محمد الغزالي، خلق المسلم، مكتبة رحاب، ط5، الجزائر 1987 م، ص 177

(64) محمد أبو زهرة، الوحدة الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، د ت، ص 235.

(65) محمد عبد العليم العدوي، الوحدة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة، دار البيان للطبع والنشر، ط1، القاهرة، 2003 م، ص 56

(66) المرجع نفسه، ص 66

(67) محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ط 7، دار الشروق، القاهرة، 1980م، ص 350

(68) معالي عبد الحميد حمودة " الحج تلازم بين التوحيد والوحدة "، مجلة الحج، السنة الثالثة والخمسون، الجزء السادس، ذو الحجة 1418 هـ / أبريل 1998م، ص 36

(69) عمر يوسف حمزة وأحمد عبد الرحيم السايح، معالم الوحدة في طريق الوحدة الإسلامية (مرجع سابق)، ص 56

(70) عبد الرحمن عزام، الرسالة الخالدة (مرجع سابق)، ص 69

(71) المرجع نفسه، ص 63